

## افضل الساب عشر

### القضاء على سلطان الأكاسرة

تقع نهاوند وهمدان في صميم العراق العجمي ، وهما لذلك من صلب المملكة الفارسية ؛ فأهلها من الفرس جنساً ولغةً وديناً ، لا يمتون إلى العراق العربي وأهله بنسب ، ولا يعرفون من لغة العرب كلمة . لذلك كانت نكبة الفرس في نهاوند نكبة في صميم ملك كسرى ، فلم يكن له ولا لبني وطنه بعدها إلا الإذعان والتزول على حكم المسلمين ، أو الحرب الضروس تنهى بهم إما إلى نصريئُخرج العرب من بلادهم ، أو هزيمة تزيل الأكاسرة عن عرشهم ، وتقضى القضاء الأخير على دولتهم وسلطانهم !

وكان الأمر كذلك بخاصة لأن العراق العجمي يتوسط ولايات المملكة كلها : تقع إلى شماله أذربيجان وطبرستان وجيلان ، وإلى شرقه سمان وصحراء إيران ، وإلى جنوبه فارس وكرمان ، وإلى غربه وجنوبه الغربي يقع العراق العربي وتقع خوزستان . وبالعراق العجمي مدنٌ كبيرة تعدّ في حكم العواصم ، منها أصفهان وهمدان والري . فإذا توغل المسلمون فيه واستولوا على هذه المدن فتح ذلك أمامهم أبواب إيران كلها فانساحوا فيها ، وهيبات لقوة بعد ذلك أن تقف في طريقهم !

ولكن ! كيف ليزدجرد أن يقف تيار الغزاة الجارف ؟ لقد رآهم منذ نصرهم بالقادسية يندفعون خلال العراق العربي إلى المدائن وجلولاء ، ويقيمون البصرة والكوفة ، ويحطمون مقاومة الهرمزان في خوزستان ، ويواجهون قوات فارس مجتمعة بنهاوند فيقضون عليها أيما قضاء . ألا يدل ذلك على أن الأقدار حالفتهم ووقفت في صفهم فلن يستطيع أحد صدّهم ! ومخالفة الأقدار هي التي طوّعت لهم غزوه رقل بالشام وطرده إلى بزنطية والاستيلاء على بيت المقدس مهد النصرانية ومستقر هيكل سليمان . أليس خيراً ليزدجرد أن يصلح غزاة ذلك شأنهم ، فيدع لهم ما فتحوا ويكتفي بما بقى له من ملك أجداده ؟ ! ولعل القدر الذي تجهم له اليوم يكون أبرّ به غداً ! أم ترى تصده كبرياء الملك الذي تأثّل في فارس عشرات الأجيال والقرون عن أن يطلب الصلح مقهوراً ، وتدفعه حماسة الشباب إلى مغامرة جديدة ؟ ! الحق أنه اضطرب بين الأمرين أشد الاضطراب . فمن ذا يكفل له إذا طلب الصلح ألا

يرفض خليفة المسلمين مطلبه ، فيكون الرفض مذلة له شرمذلة ؟ ! ومن ذا يكفل له إذا دعا قومه إلى مغامرة جديدة أن يجيب مراكز فارس وأمرائها ندائه ، فإذا لم يجيبوه أقام في ملكه كأنه مخلوع عن عرشه ، لا يسمع له أمر ، ولا ينصوي أحد إلى لوائه ؟ ! لذا ترك الأمر للقدر يجرى به كما يشاء ، من غير أن يكون له في رحمة القدر كبير رجاء .

وأضعف رجاءه انصراف الأمراء والمرازمة كلٌّ إلى شأنه . لقد تعاهدوا على نصرته يوم تولى العرش وجلس بالمدائن في إيوان كسرى لأن المملكة كان لها يومئذ جيش تعتبره ، ويحمل الناس على طاعته . وقد انضوا إلى لوائه وبعثوا بالجيوش إلى نهاوند لمقاتلة عدوه يوم كان الرجاء في صد الغزاة لا يزال قوياً في نفوسهم . أما وقد تضعض جيش الدولة ، وضعف الرجاء في جلاء الغزاة ، فقد اضطربوا وانصرف أكثرهم يفكر كل أمير في إمارته وفي مصير ولايته : أيدافع المسلمين عنها ، أم يصلحهم على أن يظل والياً باسمهم عليها . لم تبق صلة هؤلاء الأمراء بيزدجرد صلة ولاء ونظام ، بل صلة مجاملة للملك أو هن القدر سلطانه ، فجعل ينتقل تنقل الشريد بين بلاد مملكته . فإن يكن القدر قد كتب في لوحه قرب خاتمته فلهم العذر أمام أنفسهم عما صنعوا ، وإن تكن الأخرى فلهم إلى يزيدجرد عودة ، وهو لا ريب يقدر يومئذ حكم الضرورة عليهم .

أنت في حلٍّ من التريب على هؤلاء الأمراء لهذا التفكير ؛ فالدول لا تقوم ولا يرتفع شأنها بمثلها . لكن هذا التفكير كان طبيعياً بحكم الأحداث التي أصابت فارس في العهد الأخير ، وكان طبيعياً لأنه كان وليد التاريخ الفارسي منذ أقدم الحقب . فقد استقرّ الفرس في الأرض التي أطلق عليها اسمهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . وكانوا يوم استقروا بها شعباً شديداً الحرص على بساطة العيش ، صعب المراس ، صلب القناة في الحرب ، شديد الطموح إلى التوسع والفتح . وقد التقوا هم والميديون في العراق العجمي ، ودارت بين الفريقين حرب طاحنة انتهت إلى صلح أذعن به أهل ميديا لسلطان الفرس وانخرطوا في سلكهم ، واندفعوا وإياهم يقاتلون عدوهم . وتخطى الفرس بلاد إيران إلى ما بين النهرين ، وساروا منها إلى مصر وإلى بلاد الإغريق ، فكانت بينهم وبين مدن اليونان وقائع ردهم بها الإغريق عن أوروبا . وكانت فارس يومئذ ولايات استقرّ في كل ولاية منها أمير من أمرائها المحاربين ، فنصب نفسه ملكاً عليها ، واستقل بإدارة شئونها . ثم اجتمعت هذه الولايات في اتحاد قام كسرى على رأسه ، وتولى توجيه شئونه العامة ، واتخذ « الملك الأعظم » لقباً له . وقاتل الفرس الدول المجاورة لهم في الشرق والغرب فانفسح سلطانهم ، حتى دهمهم

الإسكندر المقدوني ، فغلبهم على أمرهم ومد سلطانه في أرجاء بلادهم . وكانت سياسة الإسكندر تدع شئون الحكم الداخلي لأهل البلاد . لذا بقي أمراء فارس ولهم ما كان لهم من سلطان مطلق في الولايات التي أقاموا أنفسهم ملوكاً عليها ، فزاد ذلك في استمساكهم بهذا الملك وحرصهم عليه . واستردت فارس استقلالها بعد الإسكندر ، وقام بنو ساسان بأمرها فكانوا أكاسرتها ، وكانت المدائن عاصمتها ، وإن احتفظ أمراؤها ومرازبها بسلطانهم في مختلف ولاياتها . وعاد بنو ساسان بفارس سيرتها الأولى تقاتل وتمد سلطانها . وتدفقت إليها الأموال من مختلف الأرجاء في البلاد المفتوحة تدفقاً نزع بأهلها إلى الترف ، فأخذوا من أسبابه بأعظم حظ وأوفر نصيب . واطمأن الفرس إلى هذا الترف عهداً طويلاً تفننوا في أنثائها في أسبابه ، فتحدّر بهم شيئاً فشيئاً إلى الشهوات الدنيا ، فأورثهم رخاوة أضعفت فيهم صفات البطولة والإقدام التي كانت لآبائهم وأجدادهم ، ثم لم يستعصوا عن هذه الصفات صدق العزم وقوة الجكّد مما تبعته الحضارة السليمة إلى نفوس الآخذين بها ، فانكمش بذلك سلطانهم شيئاً فشيئاً . وقد حاولوا استعادة هذا السلطان في أوائل القرن السابع المسيحي ، فحاربوا الروم وظفروا بهم واستولوا على بيت المقدس وعلى مصر . وانهمز الروم أمامهم بسبب ما فشا فيهم من سوء الحكم وفساد النظام . فلما تولى هرقل أمر الروم ردّ الفرس على أعقابهم ، واسترد الصليب الأعظم منهم . ولم يقف أثر الهزيمة بالفرس عند ارتدادهم إلى تحومهم ، بل ضعفت نفوسهم ، وفشت الفوضى في بلاطهم ، وتزعزعت ثقتهم بأنفسهم . فلما فاجأهم العرب زادتهم هذه العوامل رخاوة ، فلم يستطيعوا الثبات في وجه غزاتهم ، فجعل كل منهم يتلمس النجاة لنفسه ، وجعل أمراؤهم يلتمسون السلطان الزائف في كنف الفاتح يستمتعون به ولو إلى حين ، تاركين كسرى رمز وحدتهم وعزتهم تجرى الأقدار في أمره مما تشاء .

كان ذلك شأن عاهل الفرس وشأن كثيرين من المرازبة والأمراء في دولته . أما عمر فلم يلبث حين اطمأن إلى انتصار جنده بنهأوند ومصالحتهم أهل همدان أن ذكر قول الأحنف بن قيس : إن الفرس لن يزالوا يقاومون المسلمين ما دام يزدجرد بين أظهرهم ، فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه . لا مفرّاً إذاً من تعقّب الفرس في أرجاء ملكهم حتى يجلو عنه كسرى فيصير خالصاً للمسلمين ، فأى الخطط أنجع لبلوغ هذه الغاية ؟

لم يكن لعمر أن يُسير الألوية التي عقدها لتتساح في أرض فارس قبل أن يفتح العراق العجمي كله ، فيحمي بذلك ظهره ، ويأمن خط رجوعه ، ويسيطر على الطرق التي

تسير خلالها الأمداد من العراق العربي ومن شبه الجزيرة لتعزيز جنده . ولكن ! هل تسير القوات في هذا العراق العجمي من همدان إلى الرى تفتتحها ، أم تنحدر من نهاوند إلى أصبهان لتخضع من هذه الولاية المترامية الأطراف أفصح أرضها رقعةً ، وأكثرها بخورستان وبالعراق العربي اتصالاً ؟

فقد كان يزدجرد مقيماً بالرى حين دخل العرب نهاوند وهمدان . فلما رأهم اقتربوا من مقره خف إلى أصبهان يحرض أهلها على المقاومة . وبلغ ذلك عمر فأمر بالسير إلى أصبهان وكان رجائه أن يتولى يزدجرد الدفاع عنها فيقع أسيراً ، فتتحطم بأسره مقاومة الفرس كلها . لذلك أمر عبد الله بن عبد الله بن عتبان فسار إليها فيمن كان معه من جند الكوفة ومن تبعه من جند النعمان بن مقرن بناوند .

وفي رواية أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فقال له : ما ترى ؟ أبداً بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ وأجابه الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس . واطمأن عمر إلى هذا الرأى فأمر بالسير لفتح أصبهان .

وأصبهان ، أو أصفهان ، مدينة عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمي يُطلق عليه اسمها ، وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين : جى واليهودية . وهذه الأخيرة كانت مستعمرة يهودية الأصل ، أنشأها يزدجرد الأول إجابة لرغبة زوجه اليهودية شوشن دخت . أما جى فهى القصبه ، وهى من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، ولذلك اختارها الملوك مسكناً لهم . وتقع أصبهان فى نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب ، وهى خصبة الأرض واسعة الرقعة ، تصل الطرق المعبدة بينها وبين شتى أرجاء المملكة ، فالطريق منها إلى الرى يمر بقاشان ثم بقم .

سار ابن عتبان فى جنده ، فلقى جيش عظيم من الفرس بظاهر أصبهان ، ولم يمهلهم أمير<sup>(١)</sup> هذا الجيش أن أنشب القتال معه ، واشتد القتال وحوى وطيسه وكان على مقدمة الفرس شيخ كبير هو شهريار بن جاذويه<sup>(٢)</sup> ، وكان من أبطال الفرس المعدودين ومن المبارزين الذين لا يثبت لهم فى الميدان خصم . وقد رأى المعركة تترجح ورأى القتلى من الفرس يكثرون كثرةً خشى أن تدخل الضعف إلى نفوس سائرهم ، فبرز إلى الصف الأول ودعا

(١) الاستندار هو اسم الأمير على هذه القوات .

(٢) ويذكر هذا الاسم على أنه شهر برار جاذويه .

من جنود المسلمين من ينزله . وبرز له عبد الله بن ورقاء الرياحي فصاله فقتله .  
ورأى الفرس فارسهم المَعْلَمَ صريعاً فاضطربوا ، ثم جلوا عن هذا الرستاق فنزله  
المسلمون وسموه لذلك رُستاق الشيخ . وتراجع الفرس إلى جيّ ، يحتمون بأسوار أصهبان ،  
على حين أقام المسلمون في خطوطهم الجديدة ينظّمون حُطّهم لمهاجمة المدينة العظيمة  
الحصينة .

عرف يزدجرد ما أصاب الفرس برستاق الشيخ ، ففر من أصهبان ناجياً إلى كرمان .  
وتقدّم عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى جيّ فحاصر أصهبان فتحصّن جندها بقلعها وجعلوا  
يزاحفون المسلمين ويقاتلونهم ثم يعودون إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم وضاقوا به  
خرجوا يريدونها موقعة حاسمة ، واصطف الجيشان للقتال وكان مشكاً أن يبدأ غير أن  
الفاذوستان (١) أمير أصهبان بعث إلى عبد الله بن عتبان يقول له : لا تقتل أصحابي ولا  
أقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي ، فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتني سالمك أصحابي ،  
وإن كان أصحابي لا تقع لهم نُشابة . وتتصاول الرجلان زمناً ، ثم قال الفاذوستان لعبد الله :  
« ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكريك  
فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن  
تجري من أخذتم أرضه عنوةً مجراهم ويرجعون ، ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب  
حيث شاء ولكم أرضه » ، وأقر عبد الله هذا الصلح ، ودخل أهل أصهبان في الذمة إلا  
ثلاثين رجلاً خالفوا قومهم ولحقوا بكرمان في حاشيتهم .

بينما يقاتل المسلمون ليفتحوا أصهبان كانت بلاد الشمال الواقعة جنوب بحر قزوين  
تجتمع إلى إسفنديار الرازيّ أخي رستم الذي هُزم وقُتل بالقادسية ، تُعدُّ العُدّة معه لدفع  
المسلمين عن الريّ . وعرف أهل همدان اجتماعهم فتشجّعوا ونقضوا الصلح الذي عقده  
مع المسلمين بعد نهاوند . وبلغت عمر أبناء الانتقاض في همدان ، فأمر نُعيم بن مقرن  
أن يطير إليها وأن يدخلها عنوةً عقاباً لأهلها حتى لا يعودوا لمثل فعلتهم ، ولكي يعتبر غيرهم  
بهم فلا يجرؤ قوم من بعدها على نقض عهدهم مع المسلمين . وسمع أهل همدان اسم  
نُعيم وعرفوا سيره إليهم ، فذكروا نهاوند وذكروا الفيرزان ومصيره بثنية العسل فسقط في  
أيديهم وتولاهاهم الرعب ، وأيقنوا أنهم محصورون مقهورون لا محالة . وزاد بهم الجزع

(١) ذكر اسمه في كتب مؤرّخي العرب . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية مانصه : « سار عبدالله بن  
عتبان بأمر الخليفة عمر إلى جيّ ، وكان عليها واحد من الفاذوستان الأربعة وهم حكام الدولة الفارسية » .

حين ترمى إليهم استيلاء نُعَيْمٍ على ما حول همدان من البلاد ، ولم يبق للبيم ريب فيما قدر لهم من سوء المصير . فلما اتى نعيم إليهم وحاصر مدينتهم بعثوا إليه يطلبون الصلح وهم في ريب من قبوله ما طلبوا . وكيف يطمئن إليهم وقد نكثوا من قبل عهدهم ؟ وما كان أشد اغتباطهم حين رأوه يقبل منهم الجزية على أن تقيم بهمدان قوة من المسلمين يذكر وجودها أهل المدينة بالعهد ويقبض أميرها منهم الجزية . ترى أقبل نعيم منهم ولم يفتض مدينتهم ضناً بأرواح رجاله أن يصاب منهم أحد ؟ أم ترامت إليه أنباء إسفنديار والذين اجتمعوا إليه فأثر أن يحتفظ بقوته كاملة يواجه بها هذه الجموع المتزايدة تريد مهاجمته طمعاً في أن تدفعه عن الرى ، وأن تجليه عن همدان ، وأن تسترد ما كسبه هو وما كسبه أخوه النعمان من قبل ؟

أيّاً كان السبب الذى أدى بنعيم إلى مصالحة أهل همدان فإن الجموع التى انضمت إلى إسفنديار كانت تزداد على الأيام عدداً وقوة . وبلغ نعيماً ، وهو على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين بهمدان ، أن هذه الجموع تتحرك نحوه من جهات مختلفة : تحرك الديلم وعلى رأسهم أميرهم موتا ، وتحرك أهل الرى وعليهم الزينبي <sup>(١)</sup> أبو الفُرخان ، وتحرك أهل أذربيجان بإمرة إسفنديار ، وجعلوا واج رُوداً وجهتهم وملتقاهم . وكانت دسّتى أقرب محلة من واج رود . لذلك جعل نعيم عيونيه بها ينتظسون الأخبار ويبعثونها إليه . وسبقت الديلم إلى الملتقى ، فبعث العيون بأنبائهم إلى همدان ، فخرج نعيم منها واستخلف يزيد بن قيس عليها ، وسار في جنده حتى نزل قبالة القوات المتحالفة التى اجتمعت لقتاله . وكانت هذه القوات قد كمل عددها ، فلم تُمهّل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن شدّت عليهم ، وفى ظلها القدرة على الظفر بهم ، بل على استئصالهم . واشتد القتال بين الفريقين شدة ذكر بها الناس يوم نهاوند . وكان المسلمون قد ألقوا النصر فلم يكن التغلب عليهم يسيراً . أما هذه القوات من الديلم والفرس فلم تعرف لواء يجمعها فهى تدافع عنه وتموت دونه ، لذلك انكشفت منهزمة حين أقبل المساء بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً غفيراً .

كان نعيم قد بعث إلى عمر بإخضاع همدان ومصالحته أهلها ، وذكر له ما ترمى إليه من اجتماع الديلم وأهل الرى وأذربيجان لقتاله . وفرغ عمر لهذا النبأ وجعل يدعو الله أن يؤازر جنده وأن يؤيدهم بنصره ، وأقام بالمدينة ينتظر أنباء هذا الجند وهو أشد ما يكون إشفاقاً عليهم . وإنه لكذلك إذ قدم عليه عروة بن زيد الخيل ، وكان قدم عليه من قبل

(١) الاسم الفارسي الزيندى . أو الزيندى . ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم الزينبي .

بنبا غزوة الجسر حيث قتل أبو عبيد الثقفي وانهمز المسلمون . فلما رآه عمر قال : بشير ! وأجاب الرجل : بل عروة . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عند ذلك فطن عروة فقال : بل أحمد الله فقد نصرنا وأظهرنا ، وحدته بما كان . فلما أتم حديثه قال عمر : هلا أقمت وأرسلت ؟ وأجاب عروة : قد استخلف أخى وأحببت أن أتيك بنفسى ، ومن يومئذ سمّاه عمر البشير . وأمر عمر فقرأ الكتاب الذى حمّله عروة من نعيم بالفتح والنصر ، فحمد الناس الله وصلّوا شكراً لأنعمه .

وعاد عروة إلى همدان يحمل من عمر إلى نعيم كتاباً فيه : « أما بعد فاستخلف على همدان وسرّ حتى تقدم للرئى وتلقى جمعهم ، ثم أقم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد » . ولم يلبث نعيم حين قرأ هذا الكتاب أن أقرّ يزيد بن قيس على همدان وسار بالناس إلى الرى وهو لا يشك فى أن الله سيفتحها عليه . وكيف يخامره فى ذلك شك أو تخالط نفسه فيه ريبة ، وقد لى جموع الرى مع الديلم وأهل أذربيجان ، فهزمت وقتل منهم موتاً ملك الديلم ! ولعله أفرط فى تفاؤله ؛ فقد كان الملك بالرى يومئذ سيباوخش بن مهران بن بهرام جويين ، وكان قد أيقن بعد واج رُوذ أن المسلمين لن يصيروا حتى يهاجموه ليفضوا عليه عاصمته . لذلك استمد أهل دُنْبَاوَنَد وطبرستان وقومس وجرجان وقال لهم : قد علمتم إن هؤلاء حلوا بالرى أنه لا مقام لكم ، فأمدّوه بقوّات اجتمعت فكانت أضعاف القوات التى سار بها نعيم عدداً وعدّة ، وتحصنت هذه القوات كلها بالرى ، وكان سيباوخش قد زاد معاقلها مناعة وقوة ؛ فلما رأى ما اجتمع فى هذه المعازل أيقن أن المسلمين لن يظفروا به ، ولن يستطيعوا أن يفضوا عليه حصونه .

لم يكن عجباً أن يجتمع أهل الشّمال للدفاع عن الرى ؛ فقد كانت العاصمة الكبيرة لهذه الأجزاء ، والحصن الحصين تلوذ به وتلجأ إليه . وكان بها من المعابد القائمة حول بيوت النار ما جعل نفوس كثيرين تهوى إلى زيارتها فى المواسم الدينية ، وترى فى الاعتداء عليها اعتداء على قدس يجب الدفاع عنه . ثم إنها كانت بموقعها من الأقاليم المحيطة بها ، ملتقى تجارة واسعة تجلب إليها من الشرق ومن الغرب ، وتجعل أهلها فى رخاء ورفق عيش . وكان أهلها وأهل الأقاليم المحيطة بها مطمئنين لمناعتها ، مطمئنين بذلك إلى مقامهم بها أو فى جوارها . فلما رأوها تتعرّض للغزو تعاهدوا للدفاع عنها وذهبوا بجمعهم إلى واج رُوذ يصدّون غزاتها ، ثم لم تشهم الهزيمة عن الاجتماع كرة أخرى والتحصن بالمدينة والدفاع عنها .

ولعل حماسهم في الدفاع عنها كانت تكلف المسلمين الضحايا الكثيرة لفتحها ، لولا أن أرادت الأقدار أن يتم هذا الفتح بأيسر مما قدر له نُعيم وأصحابه ؛ فقد أساء سياوخش ملك الري لقاء الزينبي أبو الفرخان بعد وقعة واج روز ، وعنقه على ارتداده أمام المسلمين وعزله عن عمله . وأحفظ الزينبي ما حدث ، فخرج من الري حين عَرَفَ مقدم نعم لفتحها ، فلقية بظاها فتحدّث إليه مسلماً وحالفه على سياوخش . ونزل المسلمون في سَفْح جبل الري ، فلقبهم حُماتها وأنشبو معهم قتالاً لم ينته آخر النهار إلى ظفر أيّ الفريقين . فلما كان الليل قال الزينبي لُنعم : إن القوم كثير وأنت في قِلة فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وتاهدّم أنت ، فإنهم إذا خرجوا إليك لم يشبوا لك . واطمأن نعم لقوله . فبعث معه من الليل خيلاً عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو ، فأدخلهم الزينبي المدينة دون أن يشعر بهم أحد . وبات نعم يشاغل حُمة الري يرميهم بالنبل والنُشاب فشغلهم عما يدور داخل مدينتهم . فلما كان الفجر برزت خيل المسلمين بالمدينة وعلت أصوات الفرسان بالتكبير ، فأيقن الفرس حين سمعوه أنهم أخذوا على غرّة من ورائهم فانهزموا ، فاتبعهم المسلمون يُمعنون فيهم قتلاً ، ودخل نعم المدينة ، وانهزم سياوخش فلم يقف له أحد على أثر . واستفاء المسلمون من الري نحواً من فيء المدائن ، وكتب نعم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بأخماس الفيء .

ما عسى أن يكون مصير الري بعد أن تم فتحها ؟ أليس من أبنائها من يصلح المسلمين عليها ؟ نعم ! صالح نعم الزينبي على أهل الري ونصبه مكان سياوخش مرزباناً عليهم بعد أن هدم قلاعهم وخرّب حصونهم ، وأمر ببناء مدينة جديدة بجوار مدينتهم العتيقة . بذلك سقط آل بهرام ، وآل شرف المُلْك من قبَل المسلمين إلى الزينبي الأمير وأبنائه ، وبقيت الري مع ما أصابها مدينة عظيمة وثغراً من ثغور المسلمين في عهد بني أمية وبنو العباس . على أن نجمها هوى من بعدُ ومنذ بنيت طهران على مقربة منها إلى شمالها الغربي ، وإن بقيت أطلالها إلى اليوم بارزة للعيان تحدّث عما كان لها حين عَزَّها من جلال وعظمة .

وكان نصر المسلمين بالري حاسماً ؛ لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة منها تطلب الصلح وتؤدى الجزية . فلما سار سُويد بن مقرن بأمر عمر إلى قُومس لم يبق له أحد فأخذها سلماً ، وعسكر بها وصالح أهلها . وكان أهل دنباوند قد صالحوا أخاه نُعيماً بعد انهزام الحلفاء عن الري وعود كل منهم إلى مقره .

ودنباوند مدينة قائمة على جبل قريب من الرى ، وكان أهلها قد دخلوا حصون الرى للدفاع عنها ، فلما فتحت المدينة أبوابها ، وجلا حلقاؤها ومنهم أهل دنباوند مرتدين إلى منازلهم لم يكن أمام أهل دنباوند غير الصلح عقدوه على جزية مائتى ألف درهم يدفعونها كل سنة ، على ألا يُغارَ على أرضهم وألا يُدخَلَ عليهم بغير إذنه ما وفوا بعهدهم . أما قومس فكورة كبيرة واسعة بها مدن وقرى ومزارع ، تقع إلى الجنوب من جبل طَبْرِسْتان ممتدة بين الرى ونيسابور ، وتفصل طبرستان بينها وبين بحر قزوين .

بفتح الرى وصلح قَوْمَس ودنباوند لم يبق بين المسلمين وشواطئ قزوين (١) من أرض فارس غير جرجان وطبرستان وأذربيجان ، فلو أنهم فتحوها وصالحوا أهلها لبلغوا أقصى الشمال في هذه المنطقة من ملك كسرى . وقد عسكر سويد بن مقرن بعد صلح قومس ببسطام ، وكاتب ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو يسير إليه بجنوده . وبادر الملك الفارسي فصالحه عن دهستان وجرجان على الجزية يؤدِّيها أهلها ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم . وأدمج في هذا الصلح نص لم يؤلف من قبل مثيل له : « ومن استعنا به منكم فله جزاؤه على معونته عوضاً عن جزيته » . ولا أدل من هذا النص على أن الجزية إنما كانت تُقرض مقابل منع المسلمين من تغلبوا عليهم ، فإذا دفع هؤلاء عن أنفسهم أو أعانوا المسلمين كان لهم جزاؤهم .

تقع جرجان إلى الجنوب الشرقى من شاطئ قزوين ، وتقع طَبْرِسْتان إلى الجنوب من هذا الشاطئ مجاورة جرجان ، وتقع أذربيجان إلى جنوبه الغربى مجاورة طبرستان . وإذا رأى ملك طبرستان أن المسلمين أحاطوا به من الجنوب باستيلائهم على الرى ومصالحتهم أهل قومس ، ومن الشرق بصلحهم مع أهل جرجان ؛ وأنه لم يبق له منفذ إلى أرض فارس إلا من طريق أذربيجان المهددة بالغزو هى كذلك ، فقد آثر الصلح وراسل سويداً فيه ، فتوادعا وتصالحا على طبرستان وجبل جيلان بأن يدفع أهلها جزية كل عام ، وهم من بعد ذلك آمنون لا يغار عليهم ولا يتطرق أحد إلى أرضهم إلا بإذنه .

تجاور أذربيجان طبرستان من الغرب ، ويتاخم شامها بلاد الديلم ، كما يتاخم جنوبها بلاد العراق الغربى وبلاد الجزيرة . وكانت أَرْدَبِيل الواقعة على مقربة من مكان تبريز اليوم أجل ملتها . وهى بلاد جبلية ترتفع أرضها فوق سطح البحر نحو خمسمائة ألف متر ، وبها قمم يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف من الأمتار . وكلمة أذربيجان بالفارسية

(١) بحر قزوين هو بحر الحزر .

معناها أرض النار أو معابد النار . وإنما أطلق على هذا الإقليم هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت قائمة في ذلك الحين به ، فلما خمدت في الفرس عبادة النار ودان أهلها بالإسلام أبدل اسم أذربيجان باسم مازندجران .

بينما كان سويد بن مقرن يسير في جرجان وفي طبرستان ويعقد الصلح مع أهلها كان أخوه نعم ينظم شؤونها مستعيناً بالزبيني الذي أقامه والياً عليها . فلما اطمأن إلى أمرها أمد عتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله اللذين سارا بأمر عمر لإخضاع أذربيجان بسماك بن خرشة الأنصاري في قوة من غزاة الرى . وإن بكيراً ليتقدم في قواته إذ لقيه إسفنديار بن الفرخزاد عائداً في جنوده من هزيمة واج روذ ، فالتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى بإسفنديار إلى الهزيمة والأسر ، ولم يقتله بكير بل أمسكه عنده . ذلك أن إسفنديار قال له : الصلح أحب إليك أم الحرب ؟ وأجاب بكير : بل الصلح ، فاستطرد القائد الفارسي قائلاً : فأمسكني عندك ، فإن أهل أذربيجان إن لم أصلح عليهم أو أجيئ إليهم لم يقيموا لك وجلاً إلى الجبال فتحصنوا إلى يوم ما . وتحطمت مقاومة أذربيجان حين تقدم عتبة بن فرقد إلى حيث عسكر بهرام أخو إسفنديار فهزمه وألجأه إلى الفرار . عند ذلك صالح عتبة إسفنديار عليها وأعطاه كتاباً بالأمان لأهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيا وشفارها وأهل مللها على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم .

كان طبيعياً أن يتابع المسلمون مسيرتهم في شمال فارس حتى لا يبقى به لمقاومة أثر . وكان على بحر قزوين إلى جانب أذربيجان قُرْصَة يقال لها الباب أو باب الأبواب ، وكانت محصنة ، قد وُضعت على أفواهاها سلاسل فلا مخرج لسفينته منها ولا مدخل لسفينته إليها إلا بإذن . وكان أمير الباب يدعى شَهْرَبَرَّاز ، فلما عرف مقدم المسلمين كتب إلى أميرهم عبد الرحمن بن ربيعة واستأمنه ، ثم لقيه وقال : « إني بإزاء عدو كليب وأمم مختلفة ، ولست أنا من القَبَج ولا من الأرمن في شيء . وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى ، فأنا منكم ، ويدي مع أيديكم ، وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذولونا بالجزية فتوهوننا بعدوكم » . فبعث به عبد الرحمن إلى سُرَّاقَة بن عمرو ، وكان الأمير على الجيش ، فأعاد عليه شهر برزاز حديثه . وقبل منه عبد الرحمن فأعنى من يقوم مع المسلمين في حرب العدو ، أما من أقام ولم ينهض فعليه الجزاء ، وصار ذلك سنةً فيمن يحارب العدو من المشركين ، وقد كتب به سُرَّاقَة إلى

عمر بن الخطاب فأجازه وحسنه . .

فرغ سُرَاقَة من الباب فوجه قواده إلى الجبال المحيطة بها ، فرضى أهلها الجزية دون قتال ؛ إلا موقان ، فإنها تحصنت من بكير ففضها على أهلها ، ثم تراجعوا على الجزية . وفي هذه الأثناء مات سُرَاقَة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج عبد الرحمن يريد غزو الترك ، فقال له شهر براز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، وأجابه عبد الرحمن : لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وقاله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم ! وسأله الأمير الفارسي عن هؤلاء الأقوام من هم ؟ فأجابه : أقوام صحبوا رسول الله ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية ؛ فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم دائماً ، ولا يزال النصر معهم ، حتى يغيرهم من يليهم ، وحتى يلقنوا عن حالهم . على أنه لم يمض في فتح الترك إذ جاءت الأنبياء ب وفاة عمر ، وكان أهل هذه المنطقة قد اعتصموا من المسلمين بالجبال ، فعاد عنهم زمناً ثم عاد إلى غزوم في عهد عثمان .

ها قد رأيت كيف تحطمت مقاومة الشمال الفارسي كله بعد همدان والري ، وكيف كان ملوكه ومرابطته يسارعون فيطلبون الصلح فتقبل طائفة منهم الجزية ، وتؤثر طائفة أن يقف القادرون من أبنائها محاربين في صف المسلمين لتعنى من ذل هذه الجزية ؛ ثم رأيت سائر الولايات الفارسية ، فيما وراء العراق العجمي إلى الشرق وإلى الجنوب ، لا تمتد إلى هذا الشمال يد معونة . أفكان ذلك غدرًا بالشمال ومخلياً عنه ؟ أم شغلت هذه الولايات بنفسها فلم تفكر فيه ؟ من حقت أن تلتمس لهذه الولايات عن قعودها عذراً ؛ فقد روعها المسلمون بانتصارهم في شتى الأرجاء من مملكتهم ، فشل الروع تفكيرهم في إمداد غيرهم لمقاومة قوة حالفها الأقدار فلا تقف قوة في وجهها . ثم إن الولايات جميعها كانت تتوقع أن يُغير المسلمون عليها ، وتفزع إذ تتخيلهم يجتاحون أرضها ، فكانت منهم في موقف الخائف الرجل يريد أن يدفع عن نفسه خطراً ما أضعف رجاءه في القدرة على دفعه ، ولن يطلب أحد إلى مذعور أن يمدّ لغيره يد معونة وهو عاجز عن عون نفسه .

بل لم يكن توقعهم غزو المسلمين مجرد وهم يجسمه خيالهم ؛ فقد كانت الأحوال كلها تؤيده وتجعله حقيقة تراها أعينهم ولا يتقصها إلا الزمن لندمهم بكل آثارها . وكيف كان لهم أن يتناسوها وقد أصبح المسلمون في خوزستان وفي العراق العجمي

يجاورون ولاية فارس من شمالها ، ويجاورون خراسان من غربها ، فإذا تخطوا إلى فارس وإلى خراسان انفسحت أمامهم كَرَمَانٌ ومُكْرَانٌ في الجنوب ، وأصبح ما وراء خراسان إلى أقصى الحدود من أرض الفرس ميداناً لانسياحهم . وقد اعتاد الفرس أن يروا غزواتهم ينحدرون إليهم ويمتاحون أرضهم كأنهم القدر النازل لا محييص منه ولا سبيل لانتقائه . بل لقد ذكر أهل ولاية فارس ما أصابهم منذ سنين حين تخطى العلاء بن الحضرمي خليج فارس على السفن إليهم ، وما كان بينه وبينهم من قتال أعانتهم الأقدار يومئذ فيه . ترى أتعينهم الأقدار اليوم كما أعانتهم بالأمس ؟ أم ينحدر المسلمون إليهم من البصرة ويتخطون إليهم الخليج الفارسي من البحرين ، ثم يمتاحون أرضهم كما اجتاحوا العراق وخوزستان وأصفهان والرّي وغيرها من أراضي الملك الأعظم ؟

لم يكد نُعم بن مقرن يفتح الرّي حتى أذن عمر للأمرء الذين عقد لهم الألوية أن ينساحوا في أرض الفرس كلها ، فاندفعت القوات العسكرية بأصفهان إلى خراسان وتدفقت قوات من البصرة ومن البحرين إلى فارس وكرمان ، وصارت الأمداد من بلاد العرب تعزز الجيوش المنتشرة في مختلف الأرجاء من أرض كسرى ، ولا يشك عمر في أن الله سيفتح عليه هذه الأرض جميعاً ويورثها المسلمين . فهو لا يريد أن يدع للفرس متنفساً يجتمع في أثناءه كلمتهم أو تفكر في أثناءه ولاية في أمر غيرها . وكذلك أصبحت بلاد كسرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مسرحاً لحرب عوان كانت جيوش المسلمين في كل غزواتها قلة أبداً ، ثم كانت مع ذلك منتصرة فيها جميعاً . وكان الملك الشريد كسرى يزجرده يتتبع أخبار هذا القتال حيثما كان من منازل فراره فلا يرى لنفسه ملجأ يأوى إليه ليستقر فيه ، بل يضطر إلى النقلة من ملجأ إلى ملجأ ، والاعتصام بمدينة بعد مدينة ، فتنفضه الملاجئ كلها فلا يجد في مدينة عاصماً ، فيستأنف الفرار والنقلة حتى يخرج من بلاده كشر ما يخرج ملك طريد يلتمس النصرة من قوم غير قومه ، وناس غير أهله .

اندفع المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس ، فركب عثمان بن أبي العاص الثقفي السفن عابراً الخليج الفارسي إلى جزيرة أيزكاوان فاستولى عليها ، ثم تخطاها إلى أرض فارس ، فسار بجنوده إلى مدينة توج الحصينة يحاصرها . هناك ألقى مجاشع بن مسعود وقد انحدر من البصرة فاستوقفه الفرس عند توج . وقاومت المدينة الحصينة هذه القوات المتدفقة إليها من الشمال ومن الغرب ما استطاعت فلما طال بها الحصار وهنت مقاومتها ،

فتفتحها المسلمون وقتلوا من المدافعين عنها مقتلة عظيمة ، واحتلوا ما فيها وفرضوا عليها الجزية ، وكذلك أذعنّت توج منكبسة الرأس . ولقد طالما فاخرت من قبل بأنها ردت العلاء بن الحضرمي على أعقابها .

وسار مجاشع إلى سابور وأردشير ففتحهما بعد قتال . أما عثمان بن أبي العاص فسار يريد إصطخر عاصمة هذا الإقليم ومدينته الكبرى . وجمع الهريز كل قواته للدفاع عن العاصمة العتيبة وقد عزم أن يرد غزاتها أو يموت دونها . ذلك أن إصطخر كان لها في نفوس الفرس مكانة سامية بلغت حد القدسية ؛ فقد كانت أول عاصمة للفرس حين نزلوا هذا الإقليم من أرض إيران ، كما كانت موطن الساسانيين أكاسرة الفرس في الزمن الذي نتحدث عنه . فساسان جد الملك أردشير الأول كان قيماً على بيت نار في إصطخر يقال له بيت نار الإله أناهيد . وكانت المدينة بعد قيام الساسانيين تُعدُّ مركزاً دينياً للدولة ؟ ثم ظلت عاصمتها زمناً غير قصير ، وبها لذلك مقابر الكثيرين من ملوكها . لا عجب وذلك شأنها أن يجمع الفرس جموعهم لصد غزاتها ، وأن يعقدوا العزم على الاستماتة في الدفاع عنها .

وتجاور إصطخر موقع برسوبوليس القديمة عاصمة هذا الإقليم في عهد الأكمينيين الذين سبقوا بني ساسان . فالصخور التي دُفن بها بعض الملوك الساسانيين بإصطخر مجاور مقابر مَنْ قبلهم من ملوك الأكمينيين برسوبوليس . والراجح أن إصطخر أنشئت عقب اضمحلال برسوبوليس في أعقاب غزو الإسكندر الأكبر ؛ ولذلك استخدمت أطلالها في بناء كثير من عمائر المدينة الجديدة . وأسرت إصطخر بعد بنائها إلى الناء والازدهار إذ أصبحت العاصمة الرسمية للدولة بني ساسان ، ثم أدّى مركزها الديني إلى أن تقام بها أفخم العمائر . وصف المقدسي مسجدها الكبير وذكر عمده الكثيرة الهائلة ، ورءوسها الضخمة المنقوشة على صورة رأس الثور ، وروى أن هذا المسجد كان بيت نار في العهد الغابر ، استعملت في بنائه مواد أخذت من برسوبوليس . وقد أشاد المقدسي بعظمة الجسر المقام على النهر في إصطخر كما أشاد بجمال حدائقها الغناء . وكانت الجبال التي مجاورها غنيّة بالمعادن المختلفة ، فكان ذلك سبباً في زيادة نمائها وازدهارها .

جمع الهريز كل قواته للدفاع عن المدينة العتيبة ، وخرج إلى ظاهرها بضاحية جُور ، وهناك لقيه عثمان بن أبي العاص فانتصر عليه وردّه إلى أسوار إصطخر .

وتحصّنت القوّات بالمدينة وقاومت المسلمين مقاومة عنيفة . لكن الأمداد كانت تصل تباعاً إلى المسلمين فتريد الحصار على الفرس ضيقاً . وطال بالهريز وجنوده ما يلاقون من شدة هذا الحصار فوهنت عزائمهم ، وفتحت المدينة أبوابها ، ودخلها المسلمون فقتلوا حمايتها وأصابوا منها ما شاءوا وفرّ من أهلها من قرّ . ثم دعا ابن أبي العاص الناس إلى الجزاء والذّمة فعادوا وعاد الهريز ، ونزلوا جميعاً على حكم الغزاة .

وبلغ عثمان أن بعض المسلمين أخذ من المغنم لنفسه قبل قسمة النّية ، فقام في الناس فقال : « إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفّهم ووفّر أمانتهم ، فاحفظوها ؛ فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جدّد لكم كل يوم فقدان شيء من أموركم » . وجمع عثمان النّية وكان عظيماً ، فخمسه وبعث إلى الخليفة بخمسه . وأكبر عمر فعال عثمان فأقامه والياً على البحرين .

ترى أذعنّت إصطخر لما أصابها عن رضا ونزلت على حكم القدر ؟ كلا ! بل بى ماضيها المجيد يصور لها هول ما أصابها ويحرّك دخليتها فلا تفتأ الحين بعد الحين تضطرب بنذر الثورة والانتقاض . وقد انتقضت بعد قليل من صلح الهريز مع ابن أبي العاص ثم انتقضت كرة أخرى في عهد عثمان بن عفّان ، فكان نصيبها في المرتين أن ردّت إلى الطاعة وأكرهت على احترام العهد .

وبما ساعد انتقاضها في المرة الأولى أن شهرك ملك فارس كان قريباً من كسرى في مقره بكرمان ، فلما عرف ما أصاب إصطخر بعث يحرض أهلها ويبذر بذور الثورة في الإقليم كله ، ويذكر الناس بمواقفهم المجيدة قبل سنين قليلة حين جاء العلاء بن الحضرمي من البحرين يحاول غزوهم . وانتقضت إصطخر ، وانتقض في فارس كل مكان استطاع الانتقاض ، وتابعوا شهرك وانضموا إلى لوائه . وسار الحكم بن أبي العاص أخو عثمان للقاء شهرك ، فترل في توجّ وحصنّها واتخذها مقر قيادته ، وجعل يُغير منها على ما حوله من المدن ثم يعود إليها يسوق أمامه مغانمه . ولم تسلّم أقالم سابور وأردشير وأرجان وإصطخر من هذه الغارات . وأثارت فعال المسلمين شهرك فسار بقواته يلقى الحكم بتوجّ ، واستبقى في مؤخرته كتيبة أمر رجالها بقتل كل فارسي يرتد عن الميدان . والتقى هو والحكم في موقعة حامية ظلت متأججة الوطيس زمناً غير قليل ، ولا يعرف أحد لمن يكون النصر فيها . على أن غبارها ما لبث أن تكشف عن انتصار المسلمين وفرار الفرس ومقتل شهرك وابنه . وكان لهذه المعركة من الأثر أن حطمت ما بقي من قوة

معنوية في نفوس الناس ، حتى لقد انتقل عثمان بن أبي العاص من البحرين لنجدة أخيه فكان يسير من هذا الإقليم الفسيح حيث شاء فلا يلقى مقاومة تذكر .

ويذكر البلاذري أن أبا موسى الأشعري سار بأمر عمر من البصرة . وأنه انضم إلى عثمان بن أبي العاص في هذه المرحلة من قتال فارس ، ففتح معه أرجان صلحاً على الجزية والخراج ، ثم فتحا شيراز على أن يكون أهلها أهل ذمة يؤدون الخراج إلا من أحبّ منهم الجلاء ، وألا يُقتلوا ولا يُستعبدوا ، كما فتحا سينير من إقليم أردشير وتركوا أهلها عمّاراً للأرض . وأتى عثمان بن أبي العاص ذرابجرد ، وكانت منزل علم ودين لأهل فارس ، فصالحه الهريز عنها على مال أعطاه إياه ، وعلى مساواة أهلها بغيرهم ممن فتحت بلادهم بفارس ، ثم صالحه مثل هذا الصلح على مدينة فسأ القريبة من درابجرد .

يخالف الطبري ومن أخذ عنه ، رواية البلاذري في فتح فسأ ودرابجرد . ويذكرون أن سارية بن زئيم هو الذي قصد إلى هذين البلدين ، فلما انتهى إلى عسكر الفرس بهما نزل عليهم وحاصره وأطال حصارهم ، فاستمدوا فاجتمع إليهم أكراد فارس وأتاهم الفرس من كل جانب ، فلما صاروا في قوة لا قبل للمسلمين بها عزموا مهاجمتهم في غدهم . ورأى عمر بن الخطاب تلك الليلة فيما يرى النائم انبلاج الصبح وابتداء المعركة وموقف الفريقين وعددهم ، وأن المسلمين بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن لجثوا منها إلى جبل هناك جعلوه خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد فكان ذلك أكفل لنصرهم . فلما أصبح وكان في الساعة التي رأى فيها ما رأى أمر مناديه فنادى ، الصلاة جامعة ، ثم قام في الناس فقال : أيها الناس : إني رأيت هذين الجمعين وأخبرهم بما رأى ، ثم صاح وهو يخطب : يا سارية بن زئيم ! الجبل ، الجبل ، ثم أقبل على الناس وقال : إن لله جنوداً ، ولعل بعضها أن يبلغهم !

في تلك الساعة أجمع سارية ومن معه على الاستناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا الفرس من وجه واحد فظفروا بهم وقتلوا منهم ، واستولوا في المغانم على سقَط فيه جواهر استوهبه سارية من الجند وبعث به وبالفتح إلى عمر . وبلغ رسول سارية المدينة ، فألقى عمر يُطعم الناس فأكل معهم فلما انصرف تبعه الرجل إلى داره ، فظن عمر أنه لم يشبع فأدخله معه . وجمى بغذاء الخليفة ، خبز وزيت وملح جريش ، فنظر عمر إليه ونادى امرأته : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ؟ فقالت : إني لأسمع حسّ رجل . فقال عمر : أجل ! فقالت : لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لي غير هذه الكسوة ! . وردّ عليها

عمر : أوما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة عمر ؟ ! وأجابته أم كلثوم من خدرها إجابة عتب بل سخط : ما أقل غناء ذلك غنى ! فالتفت عمر للرجل فقال : ادنُ فكلُ ، فلو كانت راضية لكان غداؤنا أطيب مما ترى !

فرغ عمر من طعامه ، فذكر له الرجل أنباء سارية فسرى عنه ، ثم ذكر له نبأ السفط وأن سارية استوهبه من المسلمين وجعله لأمير المؤمنين ، فتجهّم وصاح به ؛ لا ولا كرامة ، حتى تقدّم على ذلك الجند فتقسمه بينهم ؛ وفتح الباب يطرد الرجل من بيته واعتذر الرجل وذكر أنه أنضى بعيره ، فأبدله عمر بعيراً من إبل الصدقة ، وجعل بعيره مكانه ، ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً .

هذه رواية الطبري ومن أخذ عنه في فتح فسا ودرايجرد ، وهي الرواية المشهورة فإن تكن هي الصحيحة فمن حقلك أن تسأل : أتمّ صلة بين صبيحة عمر يا سارية الجبل ، وبين استناد سارية وأصحابه إلى الجبل في تلك اللحظة ؟ أم هي مصادفة بحتة . فعمر في شغله بشئون المسلمين الذين يقاتلون في فارس قد رأى في نومه ما رأى ، وسارية في موقفه الحربي . قد استند بجنده إلى الجبل ؟ تجرى رواية بأن أهل المدينة سألوا رسول سارية إذ كان بين أظهرهم : هل سمعوا بفارس شيئاً يوم الواقعة ، فقال : نعم ! سمعنا : « يا سارية الجبل الجبل » ، وقد كدنا نهلك : فلجاناً إليه ففتح الله علينا . ولا أراي أجد تفسيراً علمياً يقنعني بهذه الرواية . فالوحي قد انتهى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإذاعة اللاسلكية لم تكن معروفة ، بل لم تكن تجرى في خيال أحد ذلك العهد . ولست أستطيع أن أقطع بأن الأمر جاء من طريق انتقال الأفكار ، وأن نفضة من روح عمر تسلّطت على نفس سارية ، فكان ينفذ أمر الخليفة كما ينفذ النائب في التنويم المغناطيسي أمر منومه . ومع ذلك فهذا التأويل الأخير ، على تعدّد تصوره ، أدني إلى تفسير هذه الرواية إن صححت . وفي هذه الحالة يكون سارية ، إذ أمر أصحابه أن يستندوا إلى الجبل ، قد ذكر لهم أنه سمع هذا الأمر في صوت من السماء .

بينما كانت جنود ابن أبي العاص تسير في إقليم فارس كان سهيل بن عدى يغزو كرمان ، وكان الحكم بن عمرو التغلبي يغزو مكران . ولم يثبت أهل كرمان للمسلمين ففتحوا بلادهم وغنموا منهم من الإبل والشاء ما شاء الله أن يغنموا<sup>(١)</sup> أما أهل مكران فتحصنوا بنهر مكران ، ودارت بينهم وبين غزاتهم معركة عظيمة انتهت بظفر

(١) في رواية أن الذي فتح كرمان هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي .

المسلمين الذين أمعنوا في عدوهم قتلاً ثم أتبعوهم يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ، ثم رجعوا فأقاموا بمكران . وكتب الحكم إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس وفيها فيلة مع صُحَّار العَبْدِيِّ (١) ، فأمر عمر ببيع الفيلة وقسم أثمانها على الفاتحين .

كان يزدجرد بكرمان حين سار المسلمون إليها يفتحونها . فلما رآها لا تقاوم أكثر مما قاوم غيرها ، فرَّ منها إلى خراسان وأكبر رجائه أن يثبت أهلها وأهل سجستان للمسلمين . وإنما بعث إلى نفسه هذا الرجاء أن خراسان وسجستان كان بينهما وبين البصرة والكوفة وغيرها من مَسَالِح المسلمين آمادٌ غير قليلة ؛ فليس إرسال الجنود لغزوهما يسيراً كما إرسالها إلى العراق العجمي ، أو إلى فارس وكerman .

تقع سجستان إلى الشمال من مكران . وكان عمر بن الخطاب قد عقد لواءها لعاصم بن عمرو ، فقصده إليه ولحقه عبد الله بن عمير بها . ولقي أهل سجستان غزاتهم على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا لهم بل انسحبوا إلى الداخل وتحصنوا بزرنج عاصمتهم . وحصرهم المسلمون بزرنج ، ثم بثوا كتابهم تغير على ما حول العاصمة وتغنم وتسي . وأيقن المدافعون عن زرنج أن طول الحصار أضرَّ بإقليمهم ، فطلبوا الصلح على أن تكون مزارع سجستان حمية لا يطؤها المسلمون . وقبل المسلمون ما طلبوا ، ثم كانوا إذا ساروا تحاموا الأرض خشية أن يصيبوا منها شيئاً فينقضوا العهد ، فتقوم لأهل سجستان الحجة عليهم فلا يدفعوا الخراج ، وبذلك حفظ كل من الفريقين عهده وقام بواجبه . كيف أسرع سجستان إلى التسليم وهي فيما يقول المؤرخون : « أعظم من خراسان وأبعد فروجاً ، يقاتلون القندهار والترك وأمماً كثيرة » ؟ أيسر التعليل أنهم رأوا كسرى يُسرع إلى الفرار كلما رأى جيوش المسلمين مقبلة على مكان يقم به ، فكان طبيعياً أن يقتدوا به وألاً يقاوموا مقاومة تجرَّ عليهم النكال . فلم يقاومون والملك الأعظم لا يقاوم ! ثم لم يضحون بأرواحهم ، والملك الأعظم لا يضحى براحته !

ترى أيقاوم الملك الأعظم في مقره الأخير بخراسان ؟ لم يكن له إلا أن يفعل ! فلو أنه فرَّ من خراسان كما فرَّ من حلوان ومن الرِّيِّ ومن أصبهان ومن كرمان لما بقي له في أرض فارس ملجأ ، ولكان بين أن يُسلم نفسه لأعدائه ويتزل على حكمهم كما فعل

(١) يروى أن عمر سأل صحاراً عن مكران ، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يأتيه منه فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سهلها جبل ، وماؤها شل ، وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما ورامها شر منها » . قال عمر : أسجاع أنت أم مخبر : فقال صحار : بل مخبر .

الهرمزاني ، أو يتخطى تخوم بلاده إلى بلاد التتار أو بلاد الصين ، فيقيم في حماية عاهلها يلتمس منه العون ، فإما أعانه فنصره على عدوه فردّه إلى ملكه ، وإما تباطأ عنه ففضي في مقرّه حياة عار ومذلة لا نجاة له منها إلا أن يموت بائساً حزيناً .

كان يزيدجرد مقيماً بمرو حين تخطى الأحنف بن قيس تخوم خراسان على رأس القوات التي عقد له عمر بن الخطاب لواءها . وخراسان بلاد واسعة ؛ تتاخم العراق العجمي من الغرب ، وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم إيران . ومن أمهات مدنّها نيسابور وهراة ومرو وبلخ . وكانت خراسان في ذلك العهد ذات ثروة زراعية ، كما كانت تُصنع بها المنسوجات القطنية والحريرية النفيسة . وقد طمع يزيدجرد حين أقام بها يحرض أهلها ، في أن تصد الغزاة عما بقي له من أرض آبائه وأجداده ، ونسى أو تناسى أنه جمع قوات فارس كلها وقذف بها إلى نهاوند ، فدارت الدائرة عليها ، وحطّمها المسلمون هناك كل محطّم . والواقع أن المؤرخين المسلمين لم يبالغوا حين سمّوا غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم يكن الفرس يشنون بعدها للمسلمين في الوقائع الكثيرة التي دارت في شمال فارس وفي جنوبها ، ولم تكن خراسان أكثر من غيرها ثباتاً . دخلها الأحنف بن قيس من الطّبسين ، فلم يلق مقاومة تذكر حتى بلغ هراة . وهراة مدينة عظيمة قائمة في قلب خراسان ، تحف بها الجبال من كل جانب ، وتتشعب المياه في دورها وطرقاتها ، ولها تجارة واسعة جعلتها من أكثر المدن رخاء وثروة ، وأتاحت لها أن تحتفظ داخلها بأقوات تكفيها الشهور الطوال . ثم إنها كانت إلى مناعة موقعها الطبيعي ، محصنة تحصيناً زادها منعة ، فكان بها حصون كثيرة تحيط بها ، وسور يردُّ غائلة المعتدين عليها . مع هذا كله لم يظلم وقوف الأحنف بن قيس أمامها ، بل فتحها عنوةً فدانت له وصالحته .

كان سقوط هراة نذيراً بسقوط خراسان كلها . وقد خلف الأحنف فيها كتيبة من جنده ، وبعث بقوات إلى نيسابور وإلى سَرَخس ، وسار بنفسه على رأس الجيش يريد مرو الشاهجان حيث يقيم يزيدجرد . ومرو هذه تقع إلى شمال هراة وتقع نيسابور بينهما . وكانت مرو عاصمة خراسان ومدینتها الكبرى . لكن موقعها الطبيعي لم يكن في مناعة موقع هراة ؛ فقد كانت في أرض مستوية بعيدة عن الجبال ، وكانت المياه والاقوات حولها وفيرة ميسورة . لذلك لم يلبث يزيدجرد حين سمع بمسيرة الأحنف إلى مرو أن خرج إلى مرو الروذ ، وهي مدينة قريبة منها ، تقوم على نهر عظيم يمكن التحصن به .

لكن الأحنف لم يمهل حتى يتحصن . فقد جاءته أمداد من الكوفة استطاع بها أن يتابع مسيرته ، وأن يُزعج كسرى مرة أخرى . فيخرج من مرو الروذ إلى بلخ . ونزل الأحنف مرو الروذ ، وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ ثم اتبعهم الأحنف حين حاصروا المدينة القائمة على تخوم فارس وطخريستان . وكان طبيعياً ألا تقاوم بلخ أكثر مما قاومت هراة أو مرو . وكان طبيعياً أن يفرّ يزيدجرد منها ، فهو قد جعل الفرار أمام المسلمين دأبه وديدنه . ودخل الأحنف بلخ على رأس جند الكوفة ، فلما اطمأن إلى إذعانها أقام رباعي بن عامر عليها وعلى ما حولها . وعاد هو فنزل مرو الروذ واتخذها معسكراً لجنده ومقرّاً لقيادته . لم يبق ليزدجرد في أرض مملكته موضع يقَرّ فيه أو يفرّ إليه : لذلك فرّ هذه المرة مجتازاً النهر الذي يفصل بين فارس وأرض التتار . فنزل بسمرقند على خاقان الترك لائذاً به لاجئاً إليه . وكان قد كتب إلى خاقان الترك وإلى إمبراطور الصين ، منذ كان بمرور الشاهجان يستمدّهما ويستعليهما على المسلمين ، فأبطأ رسله إليهما ولم يعودوا إليه من عندهما بجواب . فلما دفعه المسلمون فلجأ إلى خاقان الترك ، دفعت النخوة هذا الأخير لنجدته . ولعل خاقان الترك رأى في تقدم المسلمين ما يهدد ملكه ، فأثر أن يصدّهم قبل أن يجتازوا إليه أرضه ، واتخذ من لجوء كسرى إليه حجة يحرك بها نخوة قومه . وحشد خاقان جنده وحشد معهم أهل قرغانة والصفد ، وسار بهم وبيزدجرد يلقى المسلمين بخراسان . كان الأحنف بن قيس قد كتب في هذه الأثناء إلى عمر بفتح خراسان وغلبته على المروّين وبلخ . فلما قرأ عمر كتابه تهلل وجهه وصاح : هو الأحنف وهو سيد أهل الشرق ! لكنه ما لبث ، بعد هذا الإعجاب بقائده الظاهر ، أن عاد إلى التفكير فيما يجب أن يعقب هذه الخطوة ، فعاوده حذرُه فقال : « لو ددت لو أتى لم أكن بعثت إلى خراسان جندياً ، ولو ددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار ! » ، وخشى أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، كما خشى أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فتطغيهم فيعيشوا في الأرض فساداً . فكتب إلى الأحنف يقول له : « أما بعد ، فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه . وقد عرقتم بأى شيء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدّم لكم النصر . وإياكم أن تعبروا فتنفضوا ! » .

وقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يسوغه ؛ فقد اتسعت رقعة الفتح في الشرق فتنازلت أرض فارس كلها ؛ وقد طالت خطوط المسلمين وتوزّعت قوّاتهم في أرجاء الشام والعراق وفارس ، ولا يأمن الخليفة انتفاض بعض هذه البلاد على نحو ما حدث

إذ حُصِرَ أبو عبيدة بحمص . هذا إلى أن التقدُّمَ فيها وراء فارس قمين أن يثير به التثار والمغول دفاعاً عن أنفسهم وعن بلادهم . فمن الخير ومن حسن الرأي أن يقف الفتح زمناً حتى يستتب الأمر ويطمئن أهل البلاد المفتوحة إلى حكم المسلمين . ومن الخير لذلك ألا يتقدم الأحنف أو غير الأحنف من أمراء الجند إلى ما وراء تخوم فارس .

دلت الحوادث من بعدُ على أن عمر كان حصيف الرأي ، بعيد النظر في حُدْره ؛ فقد سار خاقان الترك في جنده ويزدجرد إلى جانبه فعبروا النهر إلى بلخ ، واضطروا جند الكوفة أن يتراجعوا إلى مرو الروذ ، وأن ينضموا إلى الأحنف وجنده . وتعقبهم خاقان في تراجعهم وقد زاد عدد جنده بمن انضم إليهم من الفرس ، وبلغ مرو الروذ في جمع عظيم مزعج . ورأى الأحنف دقة الموقف لكثرة عدوه ، كما رأى أنه إن تم له النصر فردَّهم إلى بلخ وإلى ما وراء النهر لم يكن له أن يعبره ، فذلك رأى أمير المؤمنين . لهذا رأى أن ينسحب بجنوده إلى موضع يجرى نهر مرو الروذ أمامه ، ويقوم جبل خلفه ، حتى يكون النهر خندقاً ، بينه وبين عدوه ويكون الجبل حصيناً يكفل له ألا يؤثي من خلفه . فلما أصبح جمع الناس وقال لهم : « إنكم قليلٌ وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد » . وانسحب الجند إلى هذا المكان ، وأقبل الترك فوقفوا قبالتهم ..

لم يكتف الأحنف بما صنع من ذلك ، بل حرص على أن يعرف الترك وخاقانهم أمر عمر ألا يجتاز المسلمون النهر إلى بلادهم ، فبعث دسيساً أذاعوا هذا النبا فيهم . واطمأن خاقان إلى صحة النبا حين رأى المسلمين لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولا يدعونهم لقاتلهم . فقد أقام الجيشان أياماً والترك يغادون المسلمين ويراوحونهم ، فإذا جاء الليل تنحوا عنهم ، ثم لا يخرج المسلمون إليهم . وبعث الأحنف عيونهم فدلوهم على مكان القوم بالليل ، ثم خرج ليلته طليعةً لأصحابه حتى كان قريباً من معسكر خاقان . فلما تنفس الصبح خرج فارس ثان من طليعة الترك كأنما كان يتحدَّى المسلمين ، فبارزه الأحنف فقتله ، وخرج فارس ثان من الطليعة فأورده الأحنف حتفه ، وخرج ثالث فكان مصيره مصير صاحبيه .

رجع الأحنف بعد ذلك إلى عسكره وهو على تعبئة : وخرج خاقان الترك من قبته فرأى الفرسان الثلاثة الذين قُتلوا ، ورأى النهر بينه وبين المسلمين ، ورأى الأحنف

ورجاله لا يدعون لقتال ، وأيقن صحة ما نُمى إليه من أمر عمر فقال لرجاله : قد طال مَقامنا وما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا . وارتدَّ بالجيش حتى بلغ بلخ . وقال المسلمون للأحنف : ما ترى في اتباعهم ؟ فأجابهم : أقيموا بمكانكم ودعوهم . بذلك ثبت في نفس خاقان الترك اليقين بأن المسلمين لا يريدون قتاله ، وأنهم لن يجتازوا النهر عند بلخ إلى أرضه فازداد حرصاً على ترك فارس إلى عاصمة ملكه ، وترك المسلمين يصنِّقُ يزدجرد معهم حسابه .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة من بلخ وانضموا إلى الأحنف بمرور الروذ قد قَصَلَ في قوة فارسية من بلخ إلى مرو والشاهجان ، فحصر حارثة بن النعمان ومن معه من المسلمين بها ، واستخرج خزائنه من موضعها ، وعهد إلى أمنائه في السهر عليها فلما انسحب خاقان من مرو إلى بلخ وبلغت يزدجرد أبناء عن عزم هذا الحليف على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده ، أراد أن يحمل الخزائن وأن يلحق بحليفه . وكانت هذه الخزائن عظيمة تحوى جواهر كسرى وكل ما جمعه من خزائن فارس في أثناء فراره . وكانت من ثمَّ ثروة يخطئ تقديرها الإحصاء . وعرف أهل فارس عزم يزدجرد على حملها والفرار بها ، فسألوه : أى شيء تريد أن تصنع ؟ وأجابهم ، أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين . فقالوا له : مهلا ! إن هذا رأى سوء ، فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك . ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكةً من عدو يلينا في غير بلادنا . فأبى عليهم وأبوا عليه . قالوا : فدع خزائنا نردّها إلى بلادنا ومن يلينا ولا نخرجها من بلادنا إلى غيرها . فخالفهم يزدجرد وأصرَّ على رأيه ، فخرجوا إليه وثاروا به وقتلوه وحاشيته ، واستولوا على خزائنه ، ففرَّ فيمن معه إلى بلخ ، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ فرغانة عاصمة الترك بسمرقند .

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، ورجعوا إلى بلادهم فاطمأنوا بها ، فسار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته . وقد كان ما استفاء المسلمون في هذه المواقع عظيماً ، حتى بلغ نَقْلُ المحارب مثله يوم القادسية .

وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس ، فأمر بالكتاب فقروا ثم خطب الناس ، فكان مما قاله : « ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرَّق شملهم

فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يُضِرُّ بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبنائهم لينظر كيف تعملون . والله بالغٌ أمره ، ومنجزٌ وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوله ، فقوموا من أمره على رجل يوف لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ؛ فإنني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤثني إلا من قبلكم » .

فَرَّ يزدجرد من أرض فارس إلى أرض الترك ؛ فتم بفراره القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان . مع هذا أقام في مقره سنين يداعب الأمل والغرور خياله أن يعود يوماً إلى ملك آبائه وأجداده . لذا كان يكتاب من يطمئن إلى مكاتبتهم من أهل خراسان ، طامعاً أن تثور الأرض بالمسلمين يوماً فتتاح له فرصة الثأر منهم . وقد ثارت خراسان في زمن عثمان بن عفان ، فخيَّل إلى يزدجرد أن الفرصة تاحت ، فسار من بلاد الترك حتى نزل مرو واجتمع بمن كان يكتابهم . لكن المسلمين ما لبثوا أن قضوا على الثورة وأخذوا ييدهم زمام الأمر في الأرض التي كفرت بسלטانهم . عند ذلك رأى أصحاب يزدجرد أنه لا طاقة لهم بما يريد ، فاختلفوا معه وانفضوا من حوله ، فعاد يحاول الفرار والرجعة من حيث أتى . لكن الفرار لم يكن هذه المرة يسيراً ؛ فقد تحلَّت عنه الأرض كلها ، وقد بث المسلمون عيونهم من الفرس ليحيطوا به ويقتادوه إليهم أسيراً . وعرف الملك الشريد ما دُبِّر له ، فأوى إلى طاحونة على شاطئ النهر ، وهناك قُتِلَ شَرَّ قَتْلَةٍ . قيل إن أهل خراسان أحاطوا به في ملجئه : ثم دخلوا عليه فقتلوه وألقوا بجثته في النهر . وقيل إن صاحب الطاحونة رأى عليه حلته فلما نام قتله ، وإن الترك خُفُّوا لنجدته فوجدوه قتيلاً ، فانتقموا له من صاحب الطاحونة وأهله فقتلوه جميعاً ، ثم وضعوا جثته في تابوت وحملها بعضهم إلى إصطخر . وقيل إن صاحب الطاحونة ذهب إلى أمير مرو فأخبره خبره ، فعرفه وقال لجنده : اذهبوا فجيئوني برأسه ، فدخل عليه الطحَّان فقتله وحزَّ رأسه ودفن بها إلى الجند ورمى بجثته في النهر . وأياً ما صح من هذه الروايات فكلها تتفق على أن سليل الأكاسرة العظام قُتِلَ وهو في ملجئه عند ذلك الطحَّان ، وبمقتله انتهت دولة الأكاسرة من بني ساسان .

تم فتح فارس وفرار يزدجرد في عهد عمر . فهل ترى أذعن الفرس لحكم المسلمين من أول الأمر عن طواعية ورضاً ؟ لا ريب في أنهم رأوا هذا الحكم أكثر إنصافاً ومعادلة وأقل إرهاباً لهم من حكم الأكاسرة ؛ فقد تركهم العرب لم يزعموهم عن دينهم ولم يتدخلوا في شؤونهم ، ثم جعلوا لأمرء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم في عهد يزدجرد

وأُسلفه . كما تركوا المناصب العامة للفرس لم يحاولوا استغلالها لأنفسهم مكتفين بالجزية يقتضونها وفقاً للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات . لكن أبناء فارس لم يلبثوا أن شعروا بما في حكم الأجنبي من مذلة لهم وعار عليهم ، وأن أدركوا ما يحتويه نص ورد في المعاهدات كلها من جرح لشعورهم وإذلال لكرامتهم ؛ فقد جاء في الفقرة الأخيرة من صلح أصبهان : « ومن سبَّ مسلماً بُلغ منه ، فإن ضربه قتلناه » . وكان صلح الرى يُلزم أهلها بأن « يقرؤا المسلمين يوماً وليلة ، وأن يفخّموا المسلم ، فمن سبَّ مسلماً أو استخف به نُهك عقوبةً ، ومن ضربه قتل » . ونص صلح جرجان على أن « من سب مسلماً بلغ جهده ، ومن ضربه حلّ دمه » . أفغنى ترك الفرس أحراراً في دينهم ، وعدم التعرض لهم في التمتع بأموالهم عن الكرامة المهدورة والدم المباح كلما استخف فارسي بمسلم أو سبه أو ضربه ؟ ! لذلك بدأ الفرس ينتفضون بعد قليل من استقرار المسلمين بينهم ، مما اضطر عثمان إلى إرسال القوات المسلّحة الحين بعد الحين لتأديبهم .

ولم يكن تأديبهم وردّهم إلى الطاعة عسيراً ؛ فلم يكن عمر قد فاته أن أمة عريقة في الحضارة والمجد كأمة الفرس لن تدعن من بادئ الأمر لسلطان الأجانب عنها ، فأقام المسالح في شتى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها . وقد كان عمر في هذا الأمر كما كان في كثير غيره حصيفاً بعيد النظر . فالشعور بالكرامة أقوى أثراً في النفس من كل شعور ، ولن يستطيع كبحه إلا قوة تضطر الثائر ، لمهانة نزلت به ، أن يختار بين كرامته وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغريزة الاحتفاظ بالحياة يقفان وجهاً لوجه . وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد في حياة الشعب الفارسي أدّت به إلى أن يدين بالإسلام ، ثم كان له من الأثر في حياة الإمبراطورية الإسلامية ما لا يدخل تفصيله في نطاق هذا الكتاب .

فقد رأى العقلاء من أبناء فارس سُمّوا الإسلام ، ثم رأوا أن لا نجاة لكرامتهم مما نصّت عليه المعاهدات إلا أن يدينوا بدين الحاكمين ، وأن يندمجوا فيهم جهد طاقتهم ، وأن يستردّوا بذلك سلطاناً لم تمكّنهم الأسلحة في حمى يزدجرد من الاحتفاظ به . ولم يبلغ تعصبهم لدينهم أن يمنهم من أن ينعموا بمزايا الإسلام ، وأوطأ أن يصيروا بمجرد إسلامهم أنداداً للحاكمين يساؤونهم ويصاهرونهم . ثم إنهم حرصوا بعد إسلامهم على أن تسود عقيدتهم القديمة في أمر السلطان ، فبلغوا من ذلك ما أرادوا أو نحواً منه . جاء في كتاب « تاريخ المؤرخ » الذي نشرته « الإنسيكلوبيديا بريتانیکا » في هذا الموضوع ما خلاصته :

« دخل الفرس في الإسلام أفواجاً عقب الفتح . ولذلك أسباب كثيرة يمكن ردها جميعاً إلى سببين اثنين : أولهما أن الإسلام كان دين الحاكمين ، والثاني أن الفرس لم يكونوا يَعْتَوْنَ إلا قليلاً بالدين الرسمي للدولة السابقة . هذا إلى أن العقيدتين كانتا تلتقيان في مواضع كثيرة ، فلم يكن الانتقال من إحداهما إلى الأخرى ليثير نفوساً تزعزع إيمانها بعقيدها الأولى ؛ فقد ضعف إيمان الفرس بتعدد الآلهة ، وأصبح تصورهم أزمُزُد قريباً من فكرة الألوهية الإسلامية . ثم إن بساطة العقيدة العربية كانت منجاة للفرس من تعقيد الشعائر المَزْدِيَّة ، وكانت الزكاة المفروضة في القرآن تقابل بل تسمو على ما تدعو إليه « الأفيستا » من الصدقة والإحسان . أما ما جاء في القرآن عن الجنة والنار وعن الآخرة فكان مذكوراً في كتبهم . بذلك لم يغير الإسلام في نظر الشعب الفارسي شيئاً من عقائده الأساسية إلا أن جاءه باسمين جديدين : الله ومحمد ، وأن أحل الكلمات الثمان التي تعتبر قواعد الإسلام محل الكلمات الإحدى والعشرين التي تقوم عليها عقيدة الفرس » كان لهذا الانتقال الديني أثره في الناحية السياسية . فالعقيدة الفارسية تجعل السلطان للملك على أنه ابن الله ، فله المجد والقدسية بحكم مولده الأسمى . وقد أدت ثورة الفرس وانتفاضهم على سلطان المدينة وسلطان دمشق إلى اجتماعهم حول الوارث الشرعي لمحمد : ابن عمه على العربي الذي أقصى عن الخلافة ، وإلى أن يحيطوه بهالة من الجلال والقدسية ألف أسلافهم أن يحبطوا بها ملكهم القومي . وكما ألف أسلافهم أن يلقبوا كسرى : « الملك المقدس ابن السماء » . وأن تصفه كتبهم بأنه « السيد والمرشد » ، كذلك فعلوا في عهدهم الإسلامي فدعوه الإمام . وكان هذا اللقب على بساطته جليل المعنى إذ جمع صاحبه السلطان الدنيوي والتوجيه العقلي .

« فلما قبض على اجتماع الفرس حول ولديه الحسن والحسين ، ثم اجتمعوا من بعدهما حول عقبهما . وقد قيل : إن الحسين تزوج بنت آخر الأكاصرة الساسانيين ، فتركزت الإمامة بذلك في عقبه بازدواج الحق المقدس ، ثم بارك دم الحسين بسهولة كربلاء على هذه الوحدة التي جمعت بين الإسلام وفارس القديمة .

« وكانت الثورة التي خلعت بني أمية وأجلست العباسيين ذوى قرابة رسول الله على العرش من صنع الفرس . بذلك حققوا مبدأهم في الإمامة ، وإن لم يتوجوا بالسلطان من بذلوا كل جهدهم في سبيل تنويجه إلخ » .

هذه الحوادث التي يذكرها « تاريخ المؤرخ » ، ويذكرها المؤرخون جميعاً ،

تخطى عهد عمر . وإنما سقناها هنا لنلفت القارئ إلى أن الفرس لم تطمئن نفوسهم لحكم العرب ، بل برموا به وحاولوا الانتفاض عليه جهرةً من أول الأمر . فلما غلبوا على أمرهم جعلوا كل همهم أن يكون السلطان لهم ، فبلغوا من ذلك الشيء الكثير في ميادين الحياة العامة جميعاً . وقد بلغ من برهمم بفتح المسلمين بلادهم أن ثارت نفوس طائفة منهم بعمر ، حتى قيل إن مقتله بعد قليل من فتح خراسان كان ثمرة لمؤامرة فارسية . وبتفصيل ذلك من بعد . وحسبنا أن نقول ههنا إن عمر كان صادقاً كل الصدق حين قال يوم كتب إليه الأحنف بن قيس بفتح خراسان : « إن الله قد أهلك ملك المجوسية وأورث الإسلام أرضهم وديارهم وأبناءهم » وأن هذا الفتح كان النذير الصادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان<sup>(١)</sup> .

أما وقد فرغنا من فتح فارس فلننتقل إلى ميدان آخر كانت أسلحة المسلمين مشهورة فيه حين كانت أسلحتهم مشهورة في أرض كسرى ، وكان لها من مجيد الفعال هناك ما كان لها من مجيد الفعال هنا ، ثم كان قائدهم عمرو بن العاص أوسع قواد المسلمين حيلةً وأشدهم ذكاء . هذا الميدان الآخر هو مصر .

(١) لعل القارئ قد لاحظ أننا لم نعين تاريخ أكثر الغزوات في فتح فارس . وأتينا أغفلنا في غير موضع ذكر أسماء القواد الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات : والواقع أن تحقيق التواريخ لغزوات فارس غير ميسور ، ولعله غير ممكن وحسبي أن أذكر هنا أن أهم غزاتين فيها ، هما غزوة القادسية وغزوة نهاوند ، يقع الريب في تاريخ وقوعهما . وليس يقتصر هذا الريب على المؤرخين المسلمين ، فليس المؤرخون الأجانب دون زملائهم ريباً . فهم يذكرون أن القادسية وقعت إما في سنة ٦٣٦ أو في الشهور الأولى من سنة ٦٣٧ ، وأن نهاوند تراوح بين سنوات ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ . والظبري يذكر أن القادسية وقعت في السنة الرابعة عشرة ، وهي توافق سنة ٦٣٥ أو أوائل سنة ٦٣٦ ، وأن نهاوند وفتح أصبهان كانا في السنة الحادية والعشرين للهجرة : وفتح خراسان والري وجرجان وطبرستان وأذربيجان في السنة الثانية والعشرين . ويجعل فتح فارس وكرمان ومكران وسجستان في السنة الثانية والعشرين . وهو مع ذلك يورد من الروايات التي يراها مرجوحة ما يجرى بأن أذربيجان فتحت سنة ثمان عشرة بعد فتح همدان والري وجرجان وطبرستان . ويذكر ابن كثير أن فتح خراسان حدث بعد فتح فارس وكرمان ومكران ، وهو رأى راجح ، وبذلك تكون قد فتحت سنة ثلاث وعشرين إن صح أن فارس وجرانها فتحت تلك السنة . أما البلاذري فيخالف تلك الروايات كلها في كثير من الأحيان ، ويذهب إلى أن إيران لم يتم فتحها إلا في عهد عثمان بن عفان . كما يخالف الظبري ومن ذهب مذهبه في تسمية كثير من الأمراء الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات الكثيرة المختلفة . وقد حرصت على تحقيق ما استطعت تحقيقه من ذلك كله جهد طاقتي ، فقارنت الروايات بعضها ببعض وطبقتها على جغرافية فارس الطبيعية والسياسية لذلك العهد ، وأثبت في هذا الفصل ما اعتقدته أدنى الروايات كلها إلى الصحة . أما ما اضطرت الروايات فيه ولم يكن إثباته ذا قيمة في التاريخ للإمبراطورية الإسلامية لعهد عمر فأغفلته . وأحسبني لم أضع على القارئ بهذا الإغفال ما يفوت عليه شيئاً جوهرياً في الموضوع الذي نحن بصدده . وأكبر رجائي أن أكون قد وفقت لتصوير الفتح الإسلامي لأرض فارس على نحو يجلوه أمام القارئ في صورة واضحة خالية من الاضطراب .